مجلة بحوث
كليـــــــــــــة الآداب

سلسلة إصدارات خاصة

البلاغة بين التذوق والقاعدة

(عبد القاهر والخطيب أنموذجاً)

إعـــــداد
د / السعيد محمد عبد الحى الشافعى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بالمنوفية – جامعة الأزهر

أبريل ٢٠١١

Web site:http : // Art.menofia . edu. eg *** E. mail : arts @ mailer . menofia . edu. eg

المقدمة

حمداً لمن علم بالقلم، ووصف ذاته بصفة القدم، وصلاة وسلاما على سيد العرب والعجم سيدنا محمد المبعوث لخير الأمم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ربوا على مائدة القرآن، فكانوا هداة للأمم.

وبعـــــــــد،،،

فلكل عصر رجاله، ولكل علم شداته الذين أبحروا فيه وأتقنوا قضاياه فنزلوا أرضها، وأصابوا هدفها وأخذوا منها بحظ وافر.

والإمام عبد القاهر - رحمه الله - على رأس رجالات البلاغة عبر عصورها، وقد استحق بمعالجاته البلاغية في " الدلائل والأسرار" الإكبار والإجلال من كل عاشق متخصص في العمل البلاغي، وهذا القول ليس من باب التعصب لهوى أو مشرب، إنما هو الواقع الذي يخرج به كل قارئ منصف للرجل وللبلاغة العربية، وحسبه أنه انبرى يقلب عينيه يمنة ويسرة في صفحات القرآن الكريم، ليخرج على القارئ بأبرز ما راقه من وجوه الإعجاز حتى رست سفينة جهده على شاطئ النظم الذي أولاه فكره وأخرجه للوجود بفلسفة سبقت فلسفات كثيرة راحت تقتفي أثره وجهده المبكر.

هذا عن الرائد الأول الذي تطيب البحث به، أما عن الرائد الثاني، وهو الخطيب القزويني فالرجل- دون شك- قدم للبلاغة العربية جهداً لا ينكره إلا مدخول في عقله، وحسبه أنه جنح إلى هذا التقسيم والتبويب الذي وضعه من خلال قاعدة بلاغية وضعت، الشاهد في موضعه الذي صنف فيه.

ومن ينظر بعين التؤدة يتبين له أن الرجل فتح عقله للتبويب والترتيب، ووضع الشاهد من خلال قاعدته، إلا أنه حرم نفسه ونتاجه من مسألة مهمة ينبغي ألا يغفل عنها دارس، وهي خلو عرضه لقضايا الإيضاح من نظرة ذوقية للنص على اختلاف أنواعه على الرغم من أنه لو احتكم إلى أمرا لذوق

لأفاد كثيراً، ولأمتع عقل القارئ، إلا أنه احتكم إلى جمود القاعدة فلم يصب هذا الخير.

وقد تمخض العمل فولد - بفضل من الله ومنة - مقدمة وتمهيداً وثلاثة فصول وخاتمة.[1]

عرج البحث في المقدمة على التمهيد، والفصول، والخاتمة بإيجاز.

بعد ذلك كان التمهيد وعنوانه: "البلاغة مولداً ومرحلة" وقد دنا فيه البحث - بإيجاز - من المراحل التي مرت بها البلاغة العربية مركزاً على مرحلتي التذوق والقاعدة من خلال عبد القاهر والخطيب.

كما طالع العمل الفصل الأول وعنوانه" قراءة بلاغية لمنهج عبد القاهر والخطيب" وقد تكفل الفصل بطرح إشارة عبقة إلى العالمين الجليلين معرجاً على منهج كل منهما مروراً بإيماءة عابرة إلى البلاغة وكيف ولد فيها كل من العالمين، وقد أسفرت هذه الإيماءة عن رجل احتكم إلى الذوق فيما كتب وهو الإمام عبد القاهر، كما أسفرت عن رجل اهتم بتقرير و تبويب وترتيب ما كتب قبله وهو الخطيب القزويني.

كما تكفل الفصل بالذب عن الإمام عبد القاهر فيما نسب إليه زورا وبهتانا.

هذا عن الفصل الأول أما عن الثاني فقد وقع تحت عنوان "بين الحقيقة والخيال" وفيه عرج العمل على قوله تعالى: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك يا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين"[2].

وقد اعتبر البحث رأي الإمام في الآية حقيقة علمية منهجية، وواقعاً ملموساً أعلنت عن ذوقه وفهمه وسبقه.

---

(١) راجع بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي ص ٤، ٥

(٢) سورة هود

بعدها راح البحث يتخيل الخطيب وفهمه للآية فاتضح أن الرجل إذا نزل أرضها سيتعامل معها من زاوية القاعدة البلاغية حسب منهجه في إيضاحه، ومن ثم تجلى الفرق بين المنهجين بصورة ناصعة.

بعد ذلك تعطر العمل بفصله الثالث وعنوانه "مشاهد بين الإمام والخطيب"، وقد استضاف البحث نصوصاً علق عليها كل منهما بتعليقات أفاد منها القارئ، وعلم مشرب كل واحد منهما، حتى لاح للناظر أن الأول أعمل عقله وذوقه، أما الثاني فقد احتكم إلى القاعدة فضيق النظرة، على الرغم من أنه لو ترك لذوقه العنان، وأطلق حريته لحصل خيراً كثيراً، لكن الكمال لله وحده.

وفي الخاتمة كانت الإشارة إلى الجديد الذي طرق البحث بابه ونزل ضيفاً عليه.

وبعد فإن كان العمل أصاب شيئاً من هدفه فالمحمود هو الحق جل جلاله، وإن كانت الأخرى فأسأله - سبحانه - العفو والعافية، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير

التمهيد

البلاغة مولدا ومرحلة

لا ينكر مشتغل بالعربية أهمية علومها، وبخاصة علم الصرف والنحو والبلاغة، ولذلك أذن الله للأول أن يولد للنظر في أبنية الألفاظ، وأذن للثاني أن يولد للنظر في إعراب ما تركب منها، كما أذن بعد ذلك للثالث أن يبزغ فجره للنظر في أمر هذا التركيب وهو ثلاثة علوم تروح وتغدو، وتقلب بصرها يمنة ويسرة لتخرج على المخاطب بما يناسب حاله ويراعي مقامه.

وقد بذل العلماء عبر عصور العربية جهداً لا ينكره إلا مدخول في عقله تجاه هذه العلوم، لكنها كانت جهوداً متفرقة لم يخصص لها كتاب محدد كلمح الجاحظ في البيان إلى أن أذن الله لابن المعتز أن يخرج على الوجود بأول مؤلف مستقل في الدرس البلاغي، ثم توالت بعده الدراسات المنهجية كنقد الشعر لقدامة.

بعد ذلك لمع نجم الدراسات التي عولت على إعجاز القرآن فكانت جهود الرماني والخطابي والباقلاني، ثم انتقلت بعد ذلك البلاغة إلى مرحلة النمو على يد أئمة كبار تعطر بهم الدرس البلاغي كأبي هلال في الصناعتين، وابن رشيق في العمدة، وابن سنان في سر الفصاحة إلى أن بلغت البلاغة قمة مجدها وعظمة ازدهارها على يد رائد فذ كرم الله به البلاغة وعطرها، وقد أعلن عن ذوقه وأدبه وفكره ورجاحة عقله من خلال درتين[1] كريمتين أضاءتا جوانب البلاغة العربية بما عولج فيهما من نصوص قرآنية ونبوية وأدبية بطريقة بلاغية أعلنت عن علو كعب الإمام في هذا العلم.

وقد أجاد التطبيق على كتابي عبد القاهر جار الله الزمخشري في كشافه - رحمه الله - إلى أن تحولت بلاغة الازدهار والذوق إلى مرحلة الإحصاء "التبويب" على يد السكاكي والخطيب ومن لف لفهم من أنصار القاعدة التي

---

(١) دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة

أبت إلا أن تعلن حرباً على الذوق البلاغي، وبهذا عرف القارئ أن الصراع دائر بين من ينتصر للذوق الذي أسس له شيخ البلاغيين عبد القاهر، وبين من ينتصر للقاعدة المعززة بالنصوص والشواهد، وهذا ما سيعالجه البحث من خلال فصوله بإذن الله تعالى.

الفصل الأول

قراءة بلاغية لمنهج الإمام عبد القاهر والخطيب

مدخل:

مرت البلاغة العربية بمراحل وأطوار متباينة عبر عصور العربية إلى أن آلت إلى بلاغة القاعدة على يد مجموعة من البلاغيين الذين أخضعوا البلاغة للقاعدة، وأرمق من بينهم أبا يعقوب السكاكي ثم بدر الدين بن مالك النحوي المشهور في كتابه "المصباح لتلخيص المفتاح"، ثم الخطيب القزويني في كتابيه "تلخيص المفتاح، والإيضاح لتلخيص المفتاح" وثانيهما كالشرح الأول.

فأما مصباح ابن الناظم فإنه لم يهذب كثيراً من مفتاح السكاكي في علم البلاغة، لأن ملكة النحو كانت غالية عليه، وكان هذا سبباً في إعراض المتأخرين عن كتابه، وأما تلخيص الخطيب القزويني فإنه هذب كثيراً من مفتاح السكاكي، فقدم في مباحثه وأخر، وزاد عليه ما تجب زيادته من كتب البلاغة، وكان أسلوبه فيه أوضح من أسلوب السكاكي، ولكنه جعله أسلوباً تقريرياً لا يعني إلا بجمع القواعد في أوجز لفظ، حتى أسرف في الإيجاز، وجعل من تلخيصه متناً يحتاج إلى شرح وحواش وتقارير، ولكن عيبه هذا كان موضع تقدير المتأخرين وإعجابهم[1].

فلما فرغ الخطيب القزويني من تلخيصه شعر هو ايضاً بحاجته إلى شرح فوضع كتابه " الإيضاح" كشرح له يجرى على ترتيبه في إطناب يختصره أحياناً من كتابي عبد القاهر، وأحياناً من كتاب السكاكي مع شيء من التهذيب فيه، ومع كثير

---

(١) انظر بغية الإيضاح ج١ ص ٥، ٦

من النقد الذي يفعله أحياناً، ويرمز إليه أحياناً بقوله: "وفيه نظر" وبهذا جاء الإيضاح وسطاً بين إيجاز التلخيص، وإسهاب عبد القاهر[١].

هذا وتجدر الإشارة إلى أن إسهاب الإمام عبد القاهر- حسب نظري - يعد من باب الزيادة التي تحقق إطنابا له هدفه، أو له غرضه الذي يرمي إليه، ومن ثم أختلف مع الشيخ الصعيدي في بغيته عندما قال: "وإسهاب عبد القاهر" دون تعليق أو تعليل، أو توضيح ، أو تفسير لمراده من هذه العبارة.

وعلى الرغم من أهمية الإيضاح إلا أنه لم يأخذ حظه عند المتأخرين بمثل ما كتب للتلخيص؛ لأن كثيراً من المتأخرين شغفوا بالمتون حفظاً وشرحا، ومن ثم فقد كانت نظرتهم للتلخيص على أنه متن من المتون فانكبوا عليه شارحين كسعد الدين التفتازاني صاحب "المطول والمختصر" وهما خاصان بالتلخيص، إلا أن الأول شرحه شرحاً مطولاً، والثاني شرحه شرحاً مختصراً.[٢]

هكذا تحولت البلاغة عند السكاكي والخطيب ومن لف لفهم إلى نوع من الإحصاء لفنون هذا العلم والتمثيل عليها، وإلى تلخيص لكتب السابقين.[٣]

المبحث الأول: منهج الإمام عبد القاهر البلاغي:

إن الناظر للمدخل السابق يرى أنه قدم نظرة عابرة لمدرسة القاعدة من خلال أشهر رجالاتها، وسيعود إليها البحث بعد استضافته للإمام عبد القاهر، وقد قدم العمل الحديث عن السكاكي، ومن لف لفه ممن جاء بعده؛ ليضع القارئ من بداية الأمر في مقارنة بين المدرسة التي تعاملت مع بلاغتنا من باب القاعدة، أو من زاوية القاعدة، وبين رجل صرف همته إلى أمر سخر له كل إمكاناته وهو التذوق العام للنص القرآني، ولغيره من سائر النصوص التي

---

(١) السابق ص ٦

(٢) السابق ص ٦

(٣) ينظر جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع للهاشمي ص ١٢

تعامل معها عن كثب متأملاً ومتذوقاً، فلم يكن من أصحاب المدرسة الأولى من مدارس التذوق البلاغي، وهي المدرسة الفطرية التي تنظر إلى أي نص نظرة لا تتعدى الاستحسان، أو الاستهجان أي: لا تتعدى حدود الإعلان عن الإعجاب الذي يعبر عنه بقول القائل: ما أجمل كذا أو ما أروعه أو ما أعظمه أو ما أبلغه، وخير شاهد على هذه النظرة الفطرية ما صنعه ابن الخطاب عندما أمسك بالصحيفة وقرأ فيها سورة "طه" ثم قال: ما أجمل هذا الكلام وأكرمه.

لم تكن هذه مدرسة الإمام إبان نظرته لأي نص يريد التعامل معه، إنما كان ينظر إليه من خلال تتبع الخصائص العامة متجاوزاً بذلك مرحلة الذين تتبعوا في نظرتهم الخصائص الجزئية على غرار ما صنع الرماني في نكته ساعة قسم البلاغة عشرة[1] أقسام، ورتبها ونزل أرضها شارحاً مستشهداً كالحديث عن الإيجاز والتشبيه على سبيل المثال.

وبصدق أقول: كان للرجل إشارات كريمة تحسب له لا عليه، وعلى الرغم من ذلك لم يشف التتبع الجزئي للنص غليل شيخنا الإمام، فراح يتعقب النص من خلال خصائصه العامة التي تكون انطباعاً كاملاً عن النص؛ لأنه لم ينظر إليه من خلال ألفاظه فقط، ولا من خلال معاينة فقط، إنما انصبت نظرته على الطعام كله بكل ما يحوي من طيبات، ومن ثم كانت فكرته العظمى وقضيته الكبرى التي أسماها: (النظم)، ولذلك قيل: تمخض القرن الخامس فولد نادرة البطن، ونابغة البلغاء، وإمام حلبة الفصحاء أبا بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني الذي نظر يمنة ويسرة فلم يجد من مسائل هذا العلم إلا نتفا مبعثرة لا تسمن ولا تغني من جوع، فشمر عن ساعد الجد، وجمع متفرقاتها، وأقام بناءها على أسس متينة، وركز دعائمها على أرض جدد لا تنهار، وأملى من القواعد ما شاء الله أن يملي في كتابيه "أسرار البلاغة ودلائل

---

(١) هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والكلام والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان- يراجع النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٧٥

الإعجاز" وأحكم بنيانها بضرب الأمثلة والشواهد حتى أناف بها على اليفاع، وقرن فيها بين العلم والعمل، إذ رأي أن مسائل الفنون لا يستقر لها قرار إلا بكثرة الأمثلة والنماذج، فالصور الإجمالية التي تؤخذ من القواعد إن لم تؤيدها الصور التفصيلية التي تستفاد من النماذج لا تتمثل في الأذهان حق التمثيل، ولا تتجلي حقيقتها تمام الانجلاء.

وقد ساعده على ذلك ما آتاه الله من عذوبه البيان، وما تحلى به قلمه من الطلاوة الخلابة والبلاغة الساحرة لأولى الألباب[1].

هكذا استطاع المراغي بعقليته الواعية الفاهمة فهم رائد البلاغة، وإمام الذوق بطريقة استطاع من خلالها قراءة عقله وفكره ومنهجه الذي ارتضاه لنفسه في مجال الدرس البلاغي، ومن ثم راح المراغي يقول: إنه جمع ما تفرق في هذا العلم، وأقام البناء على أسس محكمة من خلال القول المحلى والمؤيد بعذوبة البيان، ثم من خلال العمل القائم على التطبيق العملي الكاشف عن الرؤية والنظرية فجمع بذلك شيخنا بين النظرية والتطبيق في زمن مبكر من هذا الدرس البلاغي.

بعد ذلك خرج علينا المراغي بقراءة دقيقة لمنهج عبد القاهر الكلي في الاقتراب من النصوص التي يريد التعامل معها، وهذا قوله عن الإلمام بالجانب التطبيقي التفصيلي الذي يؤخذ من النماذج المختارة للبحث والشرح والتحليل بغية الخروج بالصورة الإجمالية التي تحصل من القواعد، وهو منهج مبكر في التناول البلاغي طرق الشيخ بابه في هذا الزمن الموغل في العراقة والقدم، وسيكشف العمل عن ذلك إبان استضافته لبعض النماذج التي تذوقها الإمام في الأسرار والدلائل بإذن الله تعالى.

هكذا يدرك المتابع لفكر الإمام ومنهجه أن الرجل لم يقتنع بالمنهج الفطري في تحليله، ولا بالمنهج الجزئي، إنما أطربه منهجه الذي كان يرقب فيه

---

(١) علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع لأحمد مصطفى المراغي ص ١٠

الخصائص العامة من خلال الصور الإجمالية التي كان ينشرها إبان وقفته مع النصوص قرآنية، أو نبوية، أو شعرية، أو نثرية.

ونظراً لقدر الإمام وسمو منزلته البلاغية أقول: يختلف القارئ الحصيف، المنصف، ويتفق فيما ذهب إليه الشيخ عبد المتعال الصعيدي في مدخل بغيته وأبدأ بالاتفاق.

أقر الشيخ خاشع الطرف بعلو كعب الإمام في هذا العلم، وقد أعلن عن ذلك صراحة في ثنائه على أسلوب الإمام في الأسرار والدلائل، وأن الذي جعله على هذا القدر العظيم أسلوبيا إنما هو إتقانه لفكره، واهتمامه بالبحث في إعجاز أطيب الكلام وأشرفه وأعظمه كتاب الله الخالد إلى يوم القيامة.

كما اعترف الصعيدي بأن عبد القاهر في أسلوبه يساعد المتخصص في تربية ملكته البلاغية، ولا يفسدها، كما أقر بأنه ناقد أديب، وبليغ ممتاز، وقد شهدت البلاغة على يده طفرة لم يسبق إليها.[1]

وما ذكره الشيخ الصعيدي يدل بما لا يدع للريب مجالاً على أنه وزن الإمام بميزان دقيق عرف من خلاله قدر الرجل أسلوباً وعقلاً وفكراً وبلاغة، إلا أنني أختلف معه في عبارة قال فيها عن أسلوب الإمام:

"ولا عيب فيه إلا أنه يسرف في العبارات المترادفة"[2] وهي عبارة قاسية من رجل فهم الإمام وأجله؛ لأن المدقق المنصف في أسلوب عبد القاهر أسراراً ودلائل يتأكد أن الرجل كان بريئاً من هذه الفرية، وحسبه مداخله التي كان يقدمها لموضوعاته البلاغية، كالتقديم والتأخير والفصل والوصل، وغير ذلك من الموضوعات البلاغية الأخرى، وبين يدى القارئ المنصف شيئاً مما ذكره الإمام وهو بصدد التقديم والتأخير.

---

(١) ينظر السعية ص ٤

(٢) السابق ص ٤

يقول الرجل في مستهل هذا المبحث: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان".(١)

وحسبه كذلك تعليقاته البلاغية الكلية التي كان يقوم بها في دراسة النصوص، وهذا قوله عن تقديم المسند إليه مع الاستفهام التقريري: "واعلم أن هذا الذي ذكرت لك في الهمزة (هي للاستفهام) قائم فيها إذا هي كانت للتقرير، فإذا قلت:"أأنت فعلت ذاك" كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل، يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمروز: "أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم" لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان، وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: (أأنت فعلت هذا) وقال هو عليه السلام في الجواب: (بل فعله كبيرهم هذا) ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلت، أو لم أفعل، فإن قلت أو ليس إذا قال: (أفعلت) فهو يريد أيضاً بأن الفعل كان منه، لا بأنه كان على الجملة، فإي فرق بين الحاليين، فإنه إذا قال " أفعلت" فهو يقرر بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره، ولم يكن في نفى الفعل تردد، ولم يكن كلامه كلام من يوهم أنه لا يدري أكان الفعل أم لم يكن، بدلالة أنك تقول ذلك والفعل ظاهر موجود مشار إليه كما رأيت"(٢)

أعتقد أن المتأمل المنصف لبلاغة الإمام الأسلوبية سيدرك تماماً أن الشيخ كان بليغاً حتى في مرادفاته؛ لأنه كان يتعامل معها بحس الأديب المتمرس، وبلاغة الناقد الأديب، وذوق البليغ الممتاز، ومن ثم أقول للشيخ الصعيدي: عندك تناقض واضح في كلامك؛ لأنك سلمت للرجل بعلو كعبه الأسلوبي،

---

(١) دلائل الإعجاز للامام عبد القاهر ص ١٤٨

(٢) السابق ص ١٥٢ : ١٥٣

وأنه يعين على تربية الذوق، وأعلنت بخضوع عن قناعتك بأنه هو الناقد الأريب والبليغ الممتاز، وهذا يدفعني إلى أن أطرح تساؤلاً يمكن أن يكون نصه: أيها الشيخ الصعيدي هل أنسيت ما قلته عن الرجل؟ بالله عليك أيعقل أن يكون الإمام على القدر الذي ذكرته، ونعته به بلاغة ونقداً وأدباً، ثم يزل بعد ذلك في أمر كأمر المترادفات.

عذراً أيها الشيخ الكبير لقد خالفت قولك، أو بعدت عن الحقيقة، وأنت تكشف النقاب عن عيب من وجهة نظرك لا من وجهة نظر الذي يقرأ للإمام بعين الروية والتتبع الدقيق، لأنك لا تقرأ لعبد القاهر- وبخاصة المترادفات- إلا وتجد لأسلوبه لذة وحلاوة يدركها ويعرف قدرها من يقف على نصوصه في هدأة النفس، وحضور العقل إبان القراءة في الأسرار والدلائل.

حقاً إنها ليست من باب المحاباة لشيخ البلاغيين فما بين الدراسيين وبينه إلا النصفة العلمية القائمة على تتبع الحقائق، وهذا ما يتضح جلياً للذين يقفون على نص من نصوصه في كتابيه الجليليين، فالمتفصد المتتبع لما كتبه الإمام يرى نفسه أمام ناقد عرف كيف يميز بين جيد الكلام ورديئه سواء كان ذلك على مستوى ما يكتب، أو على مستوى ما ينقد، فكيف لا يفطن الإمام لهذه الآفة، وهو من نعته بعلو الكعب البلاغي والنقدي، زد على ذلك أن الرجل حتى في تعامله مع المترادفات القاطنة في نصوص كتابيه نراه ينزل أرضها بحكمة ووعي يجعل المتأمل لما كتب يدرك تماما سيطرته على ألفاظه، ومعانيه، وهذا قوله عن الاستعارة المفيدة:" ومن الفضيلة الجامعة فيها أن تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلابة، ومن خصائها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها: أنها تعطيك الكثير من المعاني بالبسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر، وإذا

تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة، ومعها يستحق وصف البلاغة، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها، وتقصر عن أن تنازعها مداها، وصادفتها نجو ما هي بدرها، وروضا هي في زهرها، وعرائس ما لم تعرها حليها فهي عواطل، وكواعب مالم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل، وإنك لترى بها الجماد حيا ناطقاً، والأعجم فصحياً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية[1].

وهذا قوله معلقاً على قول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمه حي أبوه يقاربه

"وما كان من الكلام معقداً موضوعاً على التأويلات المتكلفة فليس ذلك بكثرة وزيادة في الإعراب، وهو بأن يكون نقصاً له، ونقصاً أولى لأن الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما في نفسه ويبينه ويوضح الفرض، ويكشف اللبس.[2]

هذا وبعد عرض النصين السابقين يتأكد المدقق من ذوق الإمام وبلاغته، وبين يدي القارئ متابعة كل على حدة.

النص الأول:

إذا تتبعنا النص وجدنا أن الإمام عرف طريق المرادف الذي يزيد المعنى وضوحاً وجلاء؛ لأنه من الصعب أن تكون المترادفات بغير فروق دلالية تميزها، زمن ثم فمن التسرع أن يقال: إن الإمام عبد القاهر لا عيب فيما كتب وألف إلا مترادفاته، لأن المترادفات في كلام غير المتخصص تزيد الكلام وضوحاً، فكيف الحال بشيخ البلاغيين الذي عرف كيف ينتقي كلمته، وعرف كيف يوظفها لسياقها، كما عرف ظل الكلمة وجرسها ومقامها، والمتتبع للنص يدرك الآتي:

---

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ص ٣٣

(٢) السابق ص ٥٦

أولاً: الشيخ يدرك تماماً قيمة اللفظة، ويعرف كيف يزرعها في عبارته، وكيف يوظفها لسياقه، كما يدرك تماماً أنها لا قيمة لها منفردة إلا إذا وضعت في تركيب يناسبها، ويعلن عن قيمتها وقدرها، لأنها لا تفضل غيرها إلا بوضعها في تركيبها وهذا قوله في الدلائل: (ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ "الأخدع" في بيت للصمة بن عبدالله بن طفيل بن الحارث يقول فيه:

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا و أخدعا

وبيت البحتري:

وإني وإن تلفتني شرف الفنى أعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في هذين المكانيين ما لا يخفي من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبى تمام

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس والتنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، والإيناس والبهجة.[1]

ثانياً: من يمعن النظر في المترادفات التي وردت بالنص يتأكد من الآتي:

١ـ إلمام الإمام الكامل بكيفية وضع الكلمة في موضعها اللائق.

٢ـ كما يدرك الحصيف ان الشيخ استخدم هذه المترادفات عن قصد من خلال طبعه الخالص وحسه الصادق، ومن ثم فالقارئ لمترادفاته لا يجد التواء ولا يجد صعوبة في فهم مراد الشيخ، بل يجد سلاسة ووضوحاً وجلاء؛ لأن الإمام أحسن التوظيف البلاغي لهذه المترادفات.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٩ . ١٠٠

ثالثاً: بالوقوف على مترادفات النص كقوله: "مفرد ومنفرد" وقوله: "مرموقة وخلابة" وقوله: "البلاغة والبراعة" وقوله: "بادية جلية".

من يقف على هذه المترادفات يدرك الآتى:

١- كل لفظة مستقرة في مكانها، وغير قلقة لأنها تؤدي دورها الذي سيقت من أجله.

٢- كل كلمة وضعت في سياقها بنظام دقيق حتى إن الكلمة إذا حذفت أخلت بسياقها، لأن كل لفظة تؤدي وظيفة لا تؤديها الأخرى للإيمان الكامل بالفروق القاطنة بين المترادفات، ولنا أن نتأمل الفرق بين البلاغة والبراعة، وبين مرموقة وخلابة، وبين بادية وجلية، إنها مرادفات في سياق واحد، لكنها تتباين فيما بينها، فالبلاغة تؤدي معنى جميلاً يفترق تماماً عن البراعة وإن ترادفا وبادية بخلاف جلية، وإن اشتركا في الترادف، وما ذلك إلا للفروق القاطنة بين الكلمات.

* * * *

النص الثاني:

من يرقب النص عن كثب يتأكد من الآتي:

١- كل لفظة ناسبت موضعها ومقامها، وأصابت غرضها.

٢- كما يتأكد الناظر للنص من الفروق اللغوية والمعنوية الموجودة بين المترادفات "كالكثرة والزيادة"

٣- يتعمق الإمام في استخدام ظاهرة الترادف، فبدلاً من أن يستخدم مترادفين يستخدم أربع مرادفات، وهي "يعرب، ويبين، ويوضح، ويكشف" وكلها كلمات لا يستغني الناظر عنها، ولا يمكن البتة أن تقوم لفظة مقام أخرى، لأنها تؤكد بقوة عالم الفروق الموجودة بين المترادفات.

هكذا كان يتعامل الإمام مع اللفظة من خلال السياق الذي أعلن عنها وإن وضعت في قالب المترادفات ولذلك قيل: "فالألفاظ المقروءة سواء من حيث أصواتها، أو من حيث معانيها لا تدخل في إعجاز القرآن البلاغي، وبالتالي لا تدخل في الفصاحة، لأن ذلك يؤدي إلى أن الألفاظ معجزة بأوضاعها اللغوية، وهذا لا يصح على ما ذهب إليه الإمام في الدلائل، فقد أنكر أن يكون الإعجاز في الكلمات من حيث حروفها، أو أن يكون الإعجاز بالمعاني، أو أن يكون في تركيب الحركات والسكنات، أو أن يكون في المقاطع والفواصل، أو في خفة الحروف، أو في آيات الاستعارة.

أبطل الشيخ الإعجاز بهذه الوجوه الستة، وأقر الوجه الذي ارتضاه، وهو النظم والأسلوب والصياغة، وهذا دعم لكون اللفظة المفردة لا وزن لها، ولا شأن إلا من خلال نظمها الذي روعي فيه مقتضى حال المخاطب.[1]

ويمضي الشيخ ليبرهن على رأيه بأن إعجاز القرآن للعرب عن معارضتهم، وقصورهم عن محاكاته، إنما كان لأوصاف نزل بها، وهي أوصاف لم تكن في ألفاظه من حيث هي ألفاظ منطوقة بأصواتها وحروفها وحركاتها وسكناتها، وإنما من حيث المعاني المتصلة بتراكيبها وأساليبها، وبقول: "إن الصور البيانية تدخل في التراكيب والأساليب، فهي جزء من النظم، وليست سر جماله وإعجازه"[2].

والمتتبع لمنهج الإمام في كتابيه الخالدين - الأسرار والدلائل - يرى أن الرجل لم ينح منحى الذوق في نظرته ومعالجته فقط، بل راح يحترم أذواق الآخرين ولذلك قال الشايب: "الجمال صفة لازمة للأساليب لا غنى لها عنها ما دام الأديب معنيا بإمتاع القراء، واحترام أذواقهم، ومن السهل معرفة ذلك

---

(١) ينظر البلاغة تطور و تاريخ لشوقي ضيف ص ١٦٥

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥٥

فقد تقرأ أيضاً نصاً أدبياً واضح الأفكار قوي العاطفة، ولكنك تحس مع هذا أنها نابية عن الذوق فجة في العبارة لا تمتزج النفس"[1].

ومن يتفصد جبين الأسرار والدلائل، أو يتتبع أسلوب الإمام في هذين الكتابين يدرك أن الرجل- رحمه الله – عرف كيف يحترم الآخر، وعرف كيف يحترم ذوقه، وعرف كيف يقرأ فكره، ليصل إلى قلبه.

وعباراته وألفاظه ومعالجته البلاغية في الكتابين السابقين ليست بعيدة على من يقرأ فيهما، حتى وإن كانت القراءة على عجل، أو حتى ولو كان من غير المتخصصين في هذا العلم، فكيف الحال بقراءة المتخصص لأسلوب الإمام؟.

ونظراً للكلام السابق راح الدكتور "محمد غنيمي هلال" يقول: "يقصد عبد القاهر بالنظم صياغة الجمل ودلالتها على الصورة، وهذه الصياغة هي محور الفضيلة، والمزية في الكلام، ولهذا عنى عبد القاهر بشرح دلالات الألفاظ، واختلافها، باختلاف مواضعها في الجمل فيما سماه "النظم" الذي عرفه بقوله: "توخى معاني النحو فيما بين الكلام على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام"[2].

---

(١) الأسلوب للشايب ص ١٩٩

(٢) النقد الأدبي الحديث ص ٢٦٣

المبحث الثاني

الخطيب والقاعدة البلاغية

من يتتبع كفة بلاغة القاعدة يرى أن بدايتها كانت على يد أبي يعقوب السكاكي الذي يعد إلى حد ما من تلاميذ مدرسة عبد القاهر، لكنه كان ناقداً ولم يكن أديباً؛ لأن أسلوبه في مفتاحه لم يكن أسلوب البليغ الممتاز مثل عبد القاهر، لأن العجمة كانت غالبة على أسلوبه، وكان الأسلوب التقريري الذي لا يعني إلا بتقرير القواعد غالباً عليه، فكان أسلوبه كثير الغموض والتعقيد وضعف التأليف، ومثل هذا قد يفيد الناظر فيه علماً، ولا يفيده أسلوباً بليغاً بل يفسد فيه ملكة البلاغة، وبهذا يكون ضرره أكبر من نفعه.[1]

وكلام الشيخ الصعيدي بخصوص صاحب المفتاح كلام عرف الدقة والصواب إلى أقصى مدى، لأنه قرأ عقلية السكاكى قراءة الفاهم المدرك لأبعاد هذه الشخصية، ومن ثم راح يصنفه على رأس هؤلاء الذين شغلتهم القاعدة على حساب بلاغة التذوق وهذا قوله: "إن الذين ينظرون إلى البلاغة من هذا القالب، أو من هذه الزاوية يفسدون ملكة الذوق، وضرر كلامهم أكبر من نفعه".

هكذا كان صاحب المفتاح على رأس قاعدة الذين تعاملوا مع بلاغتنا العربية من زاوية القاعدة، ومن ثم أقلل من تتلمذه على يد الإمام عبد القاهر بلاغياً، لأنه لم يفد من حاسة الإمام الذوقية، ولا من طريقة الإمام في تتبع الشواهد، وبخاصة النصوص القرآنية، وهذا يدل على أن الرجل لم يفد من عبد القاهر، ولم يدرس البلاغة على منهجه، ومن ثم اختلف مع الشيخ الصعيدى؛ لأنه في ثنايا حديثه عن السكاكى بعد أن أعلن عن تتلمذه راح يقول: لم يكن أديباً، وأسلوبه لم يوصف بالبلاغة لسيطرة العجمة عليه، وهذا قول ينفي التتلمذ الحق في هذه الجوانب على مائدة الإمام، ولا يؤكدها إلا في

(١) ينظر البغية ص ٥

قليل أفاده السكاكي من الشيخ فيما يتعلق بالنقد فقط، ولم يأخذ منها بنصيب وافر.

بعد صاحب المفتاح الذي يعد المؤسس لمدرسة القاعدة البلاغية جاء عالمان حذوا حذوه في منهجه أولهما: ابن الناظم بدر الدين ابن مالك المتوفي سنة ٦٨٦هـ النحوي المشهور في كتابه" المصباح لتلحيص المفتاح" وثانيهما: الخطيب القزويني المتوفى سنة ٧٣٩هـ في كتابيه " تلخيص المفتاح ، والإيضاح لتلخيص المفتاح" وثانيهما كالشرح الأول، فأما مصباح ابن الناظم فلم يهذب كثيراً من المفتاح، لأن ملكة النحو كانت غالبة عليه، وكان هذا سبباً في إعراض المتأخرين عن كتابه.

وأما تلخيص الخطيب فإنه هذب كثيراً من المفتاح، فقدم في مباحثه وأخر، وزاد عليه ما تجب زيادته من كتب البلاغة، وكان أسلوبه فيه أوضح من أسلوب السكاكي، ولكنه جعله أسلوباً تقريريا لا يعني إلا بجمع القواعد في أوجز لفظ حتى أسرف في الإيجاز، وجعل من تلخيصه متنا يحتاج إلى شروح وحواش وتقارير، فلما فرغ من تلخيصه شعر هو أيضاً بحاجته إلى شرح، فوضع كتابه "الإيضاح" كشرح له يجرى على ترتيبه في إطناب يختصره أحياناً من كتابي عبد القاهر، وأحياناً من كتاب السكاكي مع شيء من التهذيب فيه، ومع كثير من النقد الذي يفصله أحيانا ويرمز إليه أحياناً بقوله: " وفيه نظر"، وعلى الرغم من هذا لم يرزق من الحظوة عند المتأخرين مثلما رزق التلخيص؛ لأنهم شغفوا بالمتون وشرحها، وقد نظروا إلى التلخيص على أنه متن من المتون فشغفوا بشرحه وحفظه[١].

هكذا نظر الصعيدي إلى مدرسة القاعدة من أكثر من زاوية.

الأولى: أنهم حذوا حذو السكاكي، وعلى رأسهم القزويني ومن لف لفه.

---

(١) انظر السابق ص ٥ ، ٦

الثانية:أن أول الذين أفاد وا وتأثروا بالسكاكي هو بدر الدين ابن مالك الذي غلب عليه النحو في نتاجه، ولذلك أعرض عنه المتأخرون من البلاغيين.

الثالثة: الخطيب في تلخيصه كان أفضل من سابقه، إلا أنه غلب عليه الأسلوب التقريري الذي كان يعني يجمع القواعد في أوجز لفظ.

الرابعة: أن القزويني أدرك أن تلخيصه يحتاج إلى توضيح وشرح، فقرر كتابه الإيضاح ليرأب به صدع ما حدث في التلخيص.

وعلى الرغم من هذه الزوايا الإيجابية إلا أنه يجب لفت الأنظار إلى مخالفات وقع فيها صاحب البغية منها ما يأتي:

أولاً: قوله عن أسلوب الخطيب في التلخيص: إنه أسرف في الإيجاز إسراف عبد القاهر في الإطناب.

والقول السابق يوافق المنصف على شقه الأول وهو إيجاز الخطيب الذي أسرف فيه بدليل أن الرجل أدرك حاجة الكتاب إلى ايضاح وشرح فكان كتابه الثاني "الإيضاح" الذي عالج به أمره.

أما الشق الثاني من الكلام وهو الخاص بالإمام عبد القاهر فعلى ما يبدو أن الشيخ الصعيدي كان ينظر أحياناً إلى الإمام بعين العيب دون تريث؛ لأنه لا يزال يؤكد على فكرة الإسراف التي عناها مرة بالإسراف في العبارات المترادفة، ومرة أخرى بالإسراف في الإطناب، وهذا كلام سبقت معالجته قبل ذلك إبان الحديث عن مدرسة الإمام الذوقية.

ثانياً: يرفع صاحب البغية من كفة الإيضاح على كفة كتب البلاغة القديمة ناسياً في مغبة هذا الحكم أن من بين كتب البلاغة القديمة "الأسرار والدلائل" لعبد القاهر، وهما من هما فكرا ونقدا وبلاغة وذوقا ومعالجة، ولا ينكر قدرهما إلا مدخول في عقله، وهذا كلام لا يصرف إلى التقليل من شأن ما كتب القزويني، لكن القضية تكمن في الفرق بين المنهجين، لأن منهج

الجرجاني كان ذوقياً يتعامل فيه مع النص بإبداع كلي يرقب أي ظاهرة بلاغية كان لها دور في إخراج الصورة على هذه البلاغة.

أما منهج صاحب الإيضاح، فكما علم سلفاً كان ينصب على الأسلوب التقريري الذي يعني بالقاعدة دون تتبع للظاهرة من خلال تذوقها، وتتبع دورها في الأسلوب، أو دون استعراض لما هو كائن بالنص من ألفاظ مع القيام بطرح أسئلة ذوقية لماذا قال كذا ولم يقل كذا، كل هذه المناحي لم يعرج عليها، ولم يقر بها القزويني في قاعدته التي ذاب عشقاً في تتبعها، والتي أفنى مراده في تأصيلها، وترتيبها، وتبويبها، لأن السكاكي لمح ما أشار إليه الجرجاني من الفروق بين مباحث علم البلاغة فميز بعضها على بعض تمييزاً تاماً، وجعل لكل مبحث علماً خاصاً، فكان من هذه علوم البلاغة، ثم جاراه في تقرير قواعدها، وزاد عليه زيادات كثيرة في تقريرها[1].

بعد ذلك كان الخطيب القزويني الذي فهم كلام شيخه - السكاكي - بإتقان فسار على الدرب في علمي المعاني والبيان، وزاد عليه في أمور منها الآتي:

١- استقلال البديع بقواعده المنوطة به.

٢- قدم وأخر في المباحث.

٣- زاد عليه ما تجب زيادته من كتب البلاغة.

٤- أسلوبه كان أوضح من أسلوب السكاكي.

٥- عنى بجمع القواعد في أسلوب تقريري بأوجز لفظ.

ومن يتتبع هذه الأمور يتأكد تماماً أن القزويني لم يدر بخلده بلاغة التذوق التي عرفت عن الإمام؛ لأنه صرف همته إلى القاعدة من خلال أسلوب تقريري وظفه لتنظيمها، كما عزف عن الإلمامة الذوقية للنص فأخضع النص

---

(١) يراجع السابق نفسه ص ٤، ٥

للقاعدة، ولم يخضعه للذوق الذي ينقب في مناقب النص من خلال دراسة متكاملة، وهذا قوله في مقدمة الإيضاح: ((مقدمة في الكشف عن معنى الفصاحة، والبلاغة وانحصار علم البلاغة في علمي المعاني والبيان، وقد حصر البلاغة وحبسها عليهما، لأنه يرى أن علم البديع يبحث في المحسنات التي تكون بعد رعاية وجوه البلاغة والفصاحة في الكلام))[1].

والذى يرقب نظرة الخطيب السابقة لعلوم البلاغة يدرك أنه أساء إلى ركنها الثالث وهو علم البديع، لأنه جعله العلم الذي لا يكون إلا بعد[2] رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة، على الرغم من أن البلاغي الحصيف يعلم يقيناً أن علوم البلاغة على أهمية واحدة، يستوي في ذلك البيان والمعاني والبديع، ومن ثم كان جعل الخطيب علم البديع العلم الذي يأتي بعد غيره، ولا تدرك قيمته إلا بعد غيره كلام يضع من شأن علم تواجد في نصوص كثيرة مع علمي البيان والمعاني، وهذا خلط وإساءة وقع فيها الخطيب من جراء اهتمامه بالقاعدة التي هان من أجلها كل شيء في سبيل الوصول إلى تقريرها وتقعيدها، وهذا يعني أن الرجل مع تأخره الزمني عن الإمام، إلا أن نظرته حتى إلى القاعدة البديعية كانت نظرة قللت من قدر الرفيق الثالث، أو من الركن الثالث للبلاغة العربية، وقد اتضح ذلك عندما أتى بالمحسنات بعد رعاية البلاغة والفصاحة، وكأنها خارجة عن حدودهما.

وأغلب الظن أن الذي أوقع الخطيب في هذه النظرة الضيقة لعلم البديع الذي شارك المعاني والبيان في مشاهد متنوعة من القرآن[3] الكريم، فكان نداً عظيماً في تباين المعنى ووضوح الفرض.

كما أعلن عن نفسه بجلاء في نصوص كريمة من السنة العطرة، وكذلك النصوص الأدبية التي سجلت هذه الظاهرة بقوة واضحة وحجة دامغة، وهذا

---

(١) انظر الإيضاح ص ٧

(٢) السابق ص ١٥٠

(٣) كقوله تعالى. أو من كان ميتاً فأحييناه على سبيل المثال لا الحصر.

معناه أن الخطيب ربك نفسه بفكر القاعدة، وأبى إلا أن يقذف بها في أحضانها فكان ما كان، على الرغم من أنه لو أطلق نفسه عن هذا التقييد لحصل خيراً كثيراً.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الإمام عبد القاهر على الرغم من سبقه الزمني اعتبر البديع من أجزاء النظم ونزل أرضه محللاً ومتذوقاً ومتأملاً فلله دره.

الفصل الثاني

بين الحقيقة والخيال

توطئة:

يعرج البحث في فصله هذا على مشهد قرآني عنى به الإمام ونزل أرضه معالجاً ومتذوقاً فخرج بذوق عال، وفكر راق تجاه المشهد.

وقد كانت معالجة الإمام واقعاً ملموساً، وحقيقة محسوسة، أما الخطيب القزويني فقد راح البحث يتخيل ماذا سيكتب الرجل تجاه المشهد لو أنه نزل أرضه معالجاً أو دارساً، ومن ثم فقد كانت السبحة في عقل الخطيب من خلال ثوابته وقواعده البلاغية التي كان يتعامل مع النصوص من خلالها.

قال تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين)[1].

هذه الآية الكريمة تجسد للقارئ عظمة الحق تبارك وتعالى في نصرة نوح عليه السلام تتويجاً لما قدمه من دور عقدي لقومه، وأخذا منه بالأسباب فيما تصوره سورة القمر، وهذا قوله سبحانه: (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر)[2].

وهذا قوله من باب النصرة للنبي ذاته: (حتى إذا جاء أمرنا وفارا لتنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل)[3].

---

(١) هود آية ٤٤

(٢) القمر آية ١١ ، ١٢

(٣) هود آية ٤٠

كل هذه المشاهد القرآنية سيقت في كتاب الله الخالد؛ لترسم صورة كاملة أو مشهدا كاملاً يصور للقارئ ما فعله هذا النبي في توكله على ربه بعد أخذه بأسباب الدعوة عقدياً، وعلى الرغم من ذلك كان القوم على عنادهم وصلفهم، فما كان من أمره إلا أن فوض الأمر إليه حسبما أشارت سورة القمر فكان الرد العاجل من الحق سبحانه: (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر).

هكذا تحولت السماء إلى أبواب من المطر، كما آلت الأرض إلى عيون من الماء، ليلتقى ماء السماء بماء الأرض على مراد الله سبحانه.

ومن عجب أنه سبحانه فجر الماء من الأرض حتى الأماكن التي يشعل فيها النار خرج الماء منها بقوة مندفعاً بصورة غير مألوفة للعقل البشري، وفي تقديري- المتواضع- أن العقل المعاصر استقى وحي فكرة ضخ الماء من الأسفل إلى الأعلى من وحي هذه الآية العظيمة تحت شعار ما يسمى في عالمنا المعاصر "بالنافورة" ولذلك قيل: (فار التنور نبع الماء فيه وارتفع كالقدر والتنور تنور الخبز ابتدأ منه النبوغ على خرق العادة وكان في موضع مسجدها، أو في الهند أو بعين وردة بأرض الجزيرة، وقيل التنور وجه الأرض، أو أشرف موضع منها)[1].

كما قيل: (جعل الله ذلك علامة لنوح و موعداً لهلاك قومه، وقال ابن عباس: التنور وجه الأرض، قيل له إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك في السفينة وقال ابن كثير: التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف والخلف)[2].

---

(١) حاشية محي الدين شيخ زادة ص ٦٤٣

(٢) صفوة التفاسير للعلامة الصابوني ج٢ ص ١٢

وقد أبى صاحب المصباح المنير إلا أن يدلي بدلوه في الإشارة إلى هذا الأمر الجلل، وهذا قوله: (فار التنور أي: نبع الماء وجاش بشدة من تنور الخبز)[1].

كما شارك الشيخ السعدي بإطلالة طيبة كان نصها: أنزل الله السماء بالماء المنهمر، وفجر الأرض كلها عيوناً حتى التنانير التي هي محل النار في العادة، وأبعد ما يكون من الماء تفجرت، فالتقى الماء على أمر قد قدر[2].

من يمعن النظر في أقوال المفسرين، وصاحب المصباح المنير يدرك تماماً أنها إشارات ولمح دلت على ان قوله: "وفار التنور" تعانق مع إشاراتهم فأكد وأثبتت عظمة البلاغة القرآنية التي تستوعب أي جديد، وتستقبل أي حديث يتعرف عليه العقل المعاصر.

هكذا أجمعت الآراء بإشارات واضحة محددة على أن الحق سبحانه أخرج الماء بالمألوف وبغير المألوف، لتكمل لوحة المؤازرة لنوح عليه السلام، طالما أنه استغاث بخالقه، ولجأ إليه طالباً عونه ومعيته.

بعد ذلك تأتي الآيات المقصودة بالدرس البلاغي لتسير على الدرب ذاته موضحة ما حدث بعد أن أخرج الله الماء من الأرض، وأنزله كذلك من السماء تمهيداً لصنع سفينة تنعم بالسير في هذا الماء لتخوض عبابه بقيادة لا تستطيعها أصابع البشر، لأن الذي يقوى عليها هو مالك القوى، وقاهر القدر، ومن ثم كان قوله: "باسم الله مجراها ومرساها" أي سفينة نوح عليه السلام لا تقاد إلا بهذه العظمة المجسدة لقوته، وعنايته ومعيته لسيدنا نوح عليه السلام.

ومن ينظر بدقة وإمعان يرى أن سياقات القصة تباينت لترسم مشهداً كلياً قوامه وهدفه نجاة نوح ومن آمن معه، وهلاك المعاند، ومن ثم كانت الإجابة

---

(١) المصباح المنير ص ١٨٥

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٣٥٨

لنبي أخذ بالأسباب، وعندئذ كلفه ربه بصنع سفينة، وكلفه كذلك بتحمل الهمز والغمز من قومه إبان صنعه لها.

بعد ذلك أراد الله عز وجل أن تتعادل كفة العطاء فأمر بظهور الماء ونزوله من السماء، وخروجه من الأرض، لأنه ماء يعد لسفينة ستخوض عبابه بعنايته ورعايته تمهيداً لفعل الله ما يشاء في خلقه، من آمن منهم ومن صد عن عقيدته.

ولقائل أن يقول: هل الماء الذي رآه نوح- عليه السلام- كان كافياً لعبور سفينته؟

وتجيب ألفاظ القرآن ببلاغتها الرشيدة من خلال قوله: "أبواب السماء" وقوله: "فجرنا الأرض عيوناً"، وقوله: "وفار التنور".

ففي الأول تجسيد لغزارة الماء الهاطل من السماء من خلال لفظين كريمين "أبواب"، وقوله: "منهمر" والحق - من خلالهما – جعل الأول مقدمة للثاني؛ لأن المطر نزل من السماء بصورة غير عادية، إنه جل شأنه جعل السماء أبوابا، ومن ثم كان قوله: "منهمر" في ذروة الدقة وصفاً لغزارة الماء النازل- بقدرة الله- من سمائه.

وفي القول الثاني: "وفجرنا الأرض عيوناً" وهو قول يتمم جواب الله عز وجل لنوح ويشترك بقوة مع القول الأول؛ لتكمل اللوحة، أو لتكمل الدائرة.

والناظر لهذا القول القرآني يلاحظ أن الحق سبحانه لم يقل بما هو دون ذلك بلاغة "فجرنا عيون الأرض" على الرغم من أن هذا التعبير سيفيد كثرة الماء النابع من هذه العيون، لكنه ببلاغة اللفظة القرآنية وعظمة الأسلوب القرآني قدم الأرض على العيون للدلالة على كثرة العيون، حتى أنه ليخيل للناظر أن الأرض أصبحت كلها عيوناً بعظمته وقدرته.

بعد ذلك يأتي القول الثالث ليعلن عن مؤازرة نوح عليه السلام بطريقة غير مألوفة ليقول سبحانه بعد أن أنزلت الماء من السماء أبواباً، وأخرجت العيون من الأرض بالمألوف من الأماكن التي يوقد فيها التنور من المسلم به بدهياً أن هذه التربة بعد الحرق المتكرر على أرضها لم تعد صالحة لشيء كهذا، إلا أن عظمته أبت إلا أن تقدم شيئاً غير مألوف وهو إخراج الماء منها مندفعاً إلى أعلى ليقول هذا غير مألوف للبشر، لكنه مألوف لقاهر القدر، وسيتناول العمل الآية من خلال العالمين الجليلين.

أولاً: الآية في ذوق الإمام عبد القاهر:

كانت هذه التوطئة أمراً طبيعياً، أو مدخلاً يتناسب وجلال المشهد الذي طرق الإمام عبد القاهر بابه، لأنه ورد ذكره في القرآن الكريم في سياق رسم هذه الصورة، فكان وصفاً دقيقاً لما حدث بعد أن أخذ نوح عليه السلام بالأسباب، أو كان بمنزلة التكليف الإلهي للكون بتلبية صرخة هذا النبي، لنجاته ومن معه أولاً، ولهلاك من خالف وصد ثانياً، ومن ثم كان الماء الذي تعددت مصادره كافياً لعبور سفينة النجاة لهذا النبي المتوكل على خالقه.

ومن يتتبع نظرة الإمام عبد القاهر لقوله سبحانه: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين).

من يتتبع هذه النظرة ويرقبها عن كثب يرى أن رائد هذا الفن عمد إلى إطلالته البلاغية لهذه الآية الكريمة، وهو بصدد الحديث عن إعجاز القرآن الكريم من خلال اعتراضه على وجوه الإعجاز التي استقر عليها غيره، ومن ثم فقد انبرى الرجل معلناً عن منهجه وديدنه في أمر النظم الذي حبس أمر الإعجاز عليه، وراح يطبق منهجه الكامل في الحكم على النص القرآني مطبقاً قوله عن إعجازه بالنظم بصورة عملية منهجية، وهذا نص ما قاله بصدد الآية المستضافة: (وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى، فتجلى لك منها الإعجاز،

وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط الكلم ببعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى ان تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينهما، وحصل من مجموعها.

إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها، بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه، وهي في مكانها من الآية؟ قل: "ابلعي" واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، ثم في أي مكان من النداء بـ "يا" أي: نحو: يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال:ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: " وغيض الماء"[1] فجاء الفعل على صيغة "فُعل" للدلالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: " وقضي الأمر" ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو " واستوت على الجودى" ثم إضمار " السفينة" قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة " وقيل" في الخاتمة " بقيل" في الفاتحة.

أفترى الشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصويرها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك، لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ. تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ.[2]

---

(١) غيض الماء نقص وذهب في الأرض - المصباح المنير ص ١٨٥

(٢) دلائل الإعجاز ص ٩٨- ٩٩

هكذا نظر الشيخ إلى المشهد نظرة متكاملة، أو نظرة كلية عامة، فلم يشغله لفظ، ولم يشغله معنى، ولم تشغله ظاهرة بلاغية، لكن شغله الأمر كله فيما عرف عنه بالمنهج المتكامل وهي نظرة- دون شك- قوامها الذوق، وليس قوامها التتبع الجزئي لظاهرة بلاغية، ولذلك من يتتبع هذا التعليق الذي يرفع الرجل إلى عنان السماء ويدرك تماماً أنه عندما نزل أرض هذا النص القرآني المجسد لقصة من أعظم القصص القرآني أعمل عقله، ووظف حسه وذوقه لدراسته وتأملاته، ومن ثم خرج في هذا الوقت الموغل في القدم بهذه الإطلالة التي أشارت إلى ذوق سليم راق، وحس عال، وبلاغة استنبطت من النص القرآني، فأعلنت عن مراد الله من هذه الآية العجيبة.

إذن الإمام لم يشغله قاعدة، ولا ظاهرة بلاغية جزئية، إنما شغله الذوق الذي أدرك من خلاله مؤازرة الألفاظ للمعاني في تصويرها لهذا الحدث من خلال بلاغة قرآنية نطق المشهد المعجز بها، ولم توظف لها عن قصد، وتلك هي عظمة القرآن التي دقق فيها الشيخ النظر، فعلم أن الأمر ليس في لفظة مفردة، وليس كذلك في معناها المجرد، إنما الأمر ينصب على منهج القرآن في عرض الحدث بطريقة أسماها الشيخ الإمام: "النظم" وهو الأمر الذي حير الألباب، وأدهش العقول، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الشيخ ساعة راح يتأمل النص احتكم إلى ذوقه وفكره الذي أحس من خلاله باستنطاق وتلبية غير العاقل لله سبحانه، وناهيك عن أرض آدمية قيل لها: " ابلعي" فبلعت، وسماء قيل لها:" أقلعي" فأقلعت، إنها العظمة الكاملة في الدلالة على قدرة الحق سبحانه، وفي بلاغة النص الذي أجاد رسم هذه العظمة ببلاغة لا تقوى عليها إمكانات البشر.

ثانياً: الآية من خلال قاعدة الخطيب:

يدور في مخيلتي أن القزويني إذا نزل أرض هذا المشهد القرآني لن يدرسه بطريقة الإمام، ولن يقربه على منهجه المتكامل الذي ارتضاه للدرس البلاغي،

وذلك من خلال الماما كاملة للنص من كل زواياه، لإبراز ما به من بلاغة خلدت في العقول بخلود في قلوب الموحدين.

وتجدر الإشارة إلى أن الرجل تتباين طريقته في تناول النص بصورة عامة والقرآني بصفة خاصة عن نظرة الإمام؛ لأن النظرة الأولى ذوقية ومنهجية، ذوقية لأنه كان يعمل عقله وذوقه، ومنهجية لأنه كان يتعامل مع النص القرآني بمنهجية النظم، وهي طريقته العظمى، ورحلته الكبرى في إبراز إعجاز القرآن الكريم.

أما الخطيب فكانت نظرته - على الرغم من إفادته من الشيخ ومن السكاكي - رهينة القاعدة، وهذا نص ما ذكره في الإيضاح: "أما بعد: فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها، ترجمته بـ "الإيضاح"، وجعلته على ترتيب مختصرى الذي سميته "تلخيص المفتاح" وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصلت معانيه المجملة، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه "مفتاح العلوم" إلى ما خلا عنه "المفتاح" من كلام الإمام عبد القاهر الجرجاني- رحمه الله- في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما، فاستخرجت زبده ذلك كله، وهذبتها، ورتبتها حتى استقر كل شيء منها في محله"[1]

أعتقد أن القزويني أعلن عن بغيته الكبرى من هذا الكتاب، وهي الجمع والترتيب والتهذيب، أما ترك العقل يسيح في جمال نص، او يرقب نصاً يتتبع جماله وأسلوبه من خلال منهج ذوقي، أو إطلاله تركز على نظرة متكاملة تخرج بخصائص عامة، أو بدراسة عامة لهذا النص، هذا هو الذي لم يركز عليه القزويني إبان دراسته البلاغية للنصوص، ومن ثم أرى أن أي متأمل لهذا النص القرآني من منظور الخطيب سيخرج بالآتي:

لو أن الشيخ نزل أرض هذه الآية ضيفاً، أو زارها متأملاً لدار في مخيلته أنه سيدرسها من القالب الجزئي الذي يتتبع الظاهرة البلاغية من منظور

---

(١) الإيضاح ص ٧ - ٨.

جزئي يرقب فيه كل صورة على حدة في دراسة مستقلة، ومن ثم فسيكون تناوله على النحو الآتي حسبما أتخيل:

أولاً: في قوله تعالى "يا أرض أبلعي" استعارة مكنية شبه فيها الحق سبحانه الأرض بإنسان أعطى حاسة السمع والبلع، ثم حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، وقرينتها تتمثل في إسناد النداء والبلع لما لا يعقل ولا يبلع وهي الأرض، وفيه تخييل واضح هو قرينه هذه الاستعارة المكنية، معنى هذا أن الأرض ارتقى بها من خلال هذه الاستعارة.

ثانياً: في قوله تعالى: "يا سماء أقلعي" ما قيل في الأرض يقال هنا بمعنى أن الكلام ينسحب على الاستعارة المكنية[1] التي جسدت فيها السماء، وعوملت على أنها شخص يعرف قيمة النداء، ويدرك ما وراءه ، وفي إسناد النداء إلى ما لا يعقل (السماء) تخييل يقدم للقارئ قرينة الاستعارة المكنية التخيلية.

ثالثاً: الطباق الكائن بين لفظتي "الأرض والسماء" وهو لتأكيد المعنى وتثبيته.

رابعاً: الرابط في المشهد بين الألفاظ والجمل بحرف الواو الذي يفيد التشريك في الحكم، كالربط بين جملتي الأرض والسماء "يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي" وكذلك الربط بين الجمل من غيض إلى قضى في قوله "وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين"

والربط - كما هو ثابت في الأذهان - يقوى العلاقة بين الجمل، ويجعلها تلتقي على هدف واحد، هو الوصول بالمعنى إلى قمة غايته.

خامساً: يقول الخطيب ومن لف لفه في دراسة الظاهرة الجزئية البلاغية تتمة للحديث عن الروابط:

---

(١) وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه – علوم البلاغة للمراغي ص ٢٥

"مما حسن الوصل بين هذه الجمل أنه سبحانه وحد في الربط الأول بين جملتين استهلتا بأداة النداء والمنادي وهما من قبيل الأسماء - الأرض والسماء - وهذا مما يحسن[1] الوصل ويجمله.

كذلك يطيب له أن يقول- أعني الخطيب - على منهجه ذاته: وحد سبحانه بين الجمل الأخرى في الفعلية، وجعل فعلها مبنياً للمجهول وهي كالآتي:

"غيض - قضي - قيل" وكلها يحسن الوصل ويجعله في مصاف الأساليب الرائعة الجميلة.

هكذا يتناول القزويني الآية، أو المشهد من منظور البحث عن القاعدة، لا من منظور ذوقي يعمل فيه عقله، ليتأمل اللفظة كما تأملها الإمام، وهذا ما جعل نظرته ضيقة محددة تروح وتغدو بين ظاهرة بلاغية وأخرى من خلال البحث عن القاعدة، على الرغم أنه لو احتكم إلى ذوقه وعقله، وفكره في التعامل مع اللفظة القرآنية، أو الجملة القرآنية، أو السياق القرآني، لو احتكم إلى العقل لأدرك خيراً كثيراً، ولارتقى بدراسته على طريقة تدعو للتأمل، والإعجاب، لكنها البشرية التي لا تعرف الكمال المطلق، إذ الكمال المطلق لله سبحانه جل شأنه وتعالى اسمه، ثم لرسوله صلى الله عليه وسلم، وحسبه[2] ما قدمه للعلم والبلاغة جمعا وترتيباً وتبويباً، لأن كل واحد من خلق الله يأخذ حظه من الرزق حسب المقدر له عند خالقه.

وتجدر الإشارة إلى أن الخيال الدارس لعقل الخطيب القزويني تجاه هذا المشهد، لم يكن خيالاً مدعماً بالدليل؛ لأنه قام على قراءة المشهد بلاغياً من خلال القواعد التي أقرها الخطيب في إيضاحه، ومن ثم رحت أتخيل من خلالها عقله وفكره وقلمه تجاه الآية لو تعامل معها بلاغياً حسب فكره ومنهجه ومشربه.

---

(١) ولذلك قيل: ما يزيد الوصل حسنا بعد وجود المصحح المجوز للعطف، اتحاد الجملتين في الكيفية كأن تكون اسمين أو فعليين أو شرطتين أو طرفين ألخ. السابق ص ١٥٢

(٢) أعني الخطيب القزويني

الفصل الثالث

مشاهد بين الإمام والخطيب

ما أعظم أن يؤيد الفكر بثوابت تدعمه، وترسخه في الأذهان، ومن ثم كان لزاماً على البحث أن يستضيف نصوصا عرج عليها الإمام عبد القاهر في الأسرار والدلائل، وعرج عليها كذلك الخطيب القزويني في إيضاحه، ليكون الحكم على منهج كل منهما قائماً على العدل والنصفة العلمية القائمة على القراءة الدقيقة لفكر الأول والثاني، وبين يدى الناظر هذه النصوص.

الشاهد الأول:

قال أبو الطيب المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

نظرة الإمام عبد القاهر:

ذكر الشيخ الشاهد في مبحث عنوانه "أسباب قوة تأثير التمثيل وعلله النفسية" وكان مما ذكر قوله: " فإن قلت إن الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال الريب والشك في الأكثر، أفتقول: إن التمثيل إنما أنس به، لأنه يصحح المذكور والصفة السابقة، ويثبت أن كونها جائز ووجودها صحيح غير مستحيل حتى لا يكون تمثيل إلا كذلك فالجواب أن المعاني التي يجيء التمثيل في عقبها على ضربين غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعي امتناعه واستحالة وجوده ذلك نحو قوله:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاتهم إلى حد بطل معه أن بينه وبينهم مشابهة ومقاربة، بل صار كأنه أصل بنفسه وجنس برأسه، وهذا أمر غريب، وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس

من ذلك الجنس، وبالمدعى له حاجة إلى أن يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة إلى أن يجيء إلى وجوده في الممدوح.

فإذا قال: "فإن المسك بعض دم الغزال" فقد احتج لدعواه وأبان أن لما ادعاه أصلاً في الوجود وبرأ نفسه من صفة الكذب، وباعدها من سفه المقدم على غير بصيرة، والمتوسع في الدعوى من غير البينة، وذلك ان المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لا يعد في جنسه، إذ لا يوجد في الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة بوجه من الوجوه لا ما قل ولا ما كثر، ولا في المسك شيء من الأوصاف التي كان لها الدم البتة"[1]

نظرة الخطيب القزويني للصورة:

ذكر الرجل الشاهد وهو يخص بالذكر الأغراض البلاغية التي تعود إلى المشبه، وعد منها قوله: "ومنها بيان أن وجود المشبه ممكن وذلك في كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه كقول أبي الطيب، ثم قال: أراد أنه فاق الأنام في الأوصاف الفاضلة، إلى حد بطل معه أن يكون واحداً منهم، بل صار نوعاً آخر- برأسه- أشرف من الإنسان، وهذا- أعنى أن يتناهى بعض أفراد النوع في الفضائل إلى أن يصير كأنه ليس منها- أمر غريب يفتقر من يدعيه إلى إثبات جواز وجوده على الجملة حتى يجيء إلى إثبات وجوده في الممدوح فقال " فإن المسك بعض دم الغزال" أي ولا يعد في الدماء لما فيه من الأوصاف الشريفة التي لا توجد منها شيء في الدم وخلوه من الأوصاف التي كان لها الدم دما فأبان أن لما دعاه أصلاً في الوجود على الجملة"[2].

من ينظر إلى المعالجتين يتبين له الآتي:

١- شرف السبق الفكري عند الإمام واضح جلي لا يدع للريب محالاً.

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٣ – ١٠٤.

(٢) الإيضاح ص ٢٣١

٢- عمق النظرة عند الإمام لا يحتاج إلى كلام، ومن ثم كان المنزل الذي وضع فيه الإمام الشاهد أعمق من المنزل الذي نزل فيه عند الخطيب، وسيوضح الأمر بعد ذلك.

أولا: شرف السبق الفكري عند الإمام؛ لأن الرجل قال هذا الكلام في قرنه[١]، فأثبت به إطلالة لها قيمتها، وذوقها، ولم يعرها عن حاسته التي كان يحلل بها نصوصه، بل نزل بيت المتنبي فصال وجال ليعلن عن منهجه في تناول مثل هذه النصوص.

ثانياً: من ينظر لكلام الإمام يرى أن الرجل انبرى ليعلن عن ذوقه البلاغي للشاهد بصورة لا تليق إلا بعقلية فيها من العمق ما فيها كعقلية إمام البلاغة، وليس أدل على هذا العمق من قوله: "فإن قلت إن الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال الريب والشك في الأكثر، أفتقول: إن التمثيل إنما أنس به لأنه يصحح المذكور والصفة السابقة ويثبت أن كونها جائز ووجودها صحيح غير مستحيل حتى لا يكون تمثيل إلا كذلك، فالجواب أن المعاني التي يجيء التمثيل في عقبها على ضربين، ثم ذكر من بينهما قوله: غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعي امتناعه واستحالة وجوده وذلك كقول المتنبي.[٢]

هكذا ركز الإمام على المعنى الغريب البديع الذي يفتح للعقل كوة للمخالفة والاستحالة ليمكنها بعد ذلك في النفس من خلال دعم فكري يعلن عنه بصراحة وقوة في بيانه ونظمه، ولذلك نفى الشبه والمقاربة ليجعل الشيء أصلاً بنفسه، وجنساً برأسه، ومن ثم فقد أتى بقوله: " فإن المسك بعض دم الغزال" ليبين أن لما ادعاه أصلا في الوجود ليناى بنفسه عن صفة الكذب، وهذا كلام يعلن بوضوح عن عمق يتفق ومنهج الشيخ في تحليله الذوقي، أما شيخنا القزويني فقد اتضح من الوهلة الأولى في ألفاظه روح التأثر بالإمام إلا في عمق تحليله وشمول نظرته، وقد بدا التأثر بالشيخ واضحاً في مطلع تحليله

---

(١) أعنى القرن الخامس الهجري- يراجع مقدمة أسرار البلاغه

(٢) ثم ذكر البيت

وبخاصة في قوله: "أراد انه فاق الأنام في الأوصاف الفاضلة إلى حد بطل معه أن يكون واحداً منهم، بل صار نوعاً آخر برأسه".

من يرقب هذه الكلمات يرى أنها وطيدة الصلة بكلام الإمام على الرغم من تباين الزمن بينهما، إلا أن مواصلة التحليل على العمق الذي أطل به الإمام على الصورة لم يعهد عند الخطيب؛ لأنه وضع الصورة في قالب، وراح يتحدث ويحلل من خلاله وهو الأمر الغريب الذي يحتاج إلى ما يمكنه في النفس البشرية.

وضع كل منهما الشاهد في منزل يناسب فكره وذوقه وجهده البلاغي:

الإمام أبى إلا أن يسكن الشاهد منزلاً اختار أن يكون عنوانه " أسباب قوة تأثير التمثيل وعلله النفسية" والقزويني أبى إلا أن يضع الشاهد تحت الأغراض التي تعود إلى المشبه، والفرق بين المنزلين واضح وجلي، لأن الأول- بنظرته الذوقية – راح ينظر إلى بيت أبى الطيب من زاوية العلل النفسية التي تجعل للتمثيل أثره على النفوس والعقول، ليراقب مدى قبولهما للصورة الملقاة عليهما للتأمل والتذوق، أما الثاني فقد راح يرقب الأمر من زاوية القاعدة المبوبة المتقنة، وهي تتمثل في أن التشبيه لا يخلو من أغراض ينشدها، أو أهداف يرقبها، وقد أصاب في الأمر، لأنه لا يوجد شيء بدون ما جاء من أجله، وإلا كان عبثاً من القول.

وعلى الرغم من ذلك فلم يلفت نظر القزويني إلا أن أمراً غريباً استنفرت منه النفس وكذلك العقل فراح يمكنه في ذهن المخاطب وعقله، إذن القزويني وضع الشاهد في زاوية أضيق من زاوية الإمام ، وهي زاوية الأغراض التي تعود إلى المشبه.

الشاهد الثاني:

قال ابن المتعز:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

نظرة الإمام:

نظر الإمام إلى البيت من منظور التقاء حسنى اللفظ والنظم معاً إلى أن خرج بهذه الإطلالة وهذا قوله: "فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها.

وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف، فأزل كلا منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل: "سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره" ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحتك التي كانت، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها؟ وجملة الأمر أن هاهنا كلاما حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ، وثالث قرن الحسن من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين"[1].

هكذا صنف الإمام البيت أو الصورة تصنيفاً ذوقياً دون نظر إلى قاعدة محددة، فالشيخ- رحمه الله- أطل على الصورة من زاوية الأمور الآتية:

١- لطف الاستعارة وحسنها.

٢- استمدت الاستعارة حسنها وبهاءها من دقة النظم التي سيقت فيه.

٣- كما استمدت الاستعارة رونقها وقدرها بعناصر جاءت لمعاونتها، كالتقديم والتأخير، والجار والمجرور، والظرف، وكلها عناصر تآزرت مع

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٤٢- ١٤٣

الاستعارة في عرض المعنى على هذا النظم البديع المحكم السبك، المتقن الصنع.

٤- كما تعاون مع الاستعارة رفيق دربها في علم البيان وهو التشبيه وذلك في عجز البيت، ويصوره قوله: "بوجوه كالدنانير" ووجه الشبه، كما قال الصعيدي: "الاستدارة والإشراق"[١]

إذن الشيخ لم يتتبع ظاهرة محددة في الصورة، يستوي في ذلك الاستعارة، والتقديم، والتأخير، والتشبيه، إنما شغله قضيته الكبرى، وهي قضية النظم، وهل أصابت الصورة هدفها وجاءت على ما يريد من دقة النظم وجمال اللفظ وروعة المعنى لأنه كان إذا نزل أرض صورة محللاً ومتذوقاً كانت لا تعنيه الظاهرة البلاغية، إلا إذا وظفت توظيفاً يليق بها من خلال نظم الصورة بالطريقة المثلى التي تعجب المتأمل وتروقه.

نظرة القزويني للصورة:

قال الرجل في تعليقه على الصورة: "أراد أنه مطاع في الحي، وأنهم يسرعون إلى نصرته، وأنه لا يدعوهم لخطب إلا إذا أتوه، وكثروا عليه، وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسيول تجيء من ها هنا وهاهنا وتنصب من هذا المسيل وذاك، حتى يغص الوادي ويطفح منها، وهذا شبه معروف ظاهر، ولكن حسن التصرف فيه أفاد اللطف والغرابة، وذلك أن أسند الفعل إلى الأباطح والشعاب دون المدلي أو أعناقها، والأنصار أو وجوههم حتى أفاد أنه امتلأت الأباطح من الأبل والشعاب من الرجال"[٢]

وبنظرة متأنية لما ذكره الخطيب بخصوص بيت ابن المعتز يتأكد الناظر للأمر أن الرجل نظر إلى الصورة من قبيل القواعد المألوفة له، وهي تكمن في أن الصورة من قبيل الصور التي تتبع دراسة الجامع وهذا قوله: "

---

(١) بغية الإيضاح ج ٣ ص ٤٩٦

(٢) السابق ج ٣ ص ١١٠- ١١١

وتنقسم باعتبار الجامع إلى عامية وخاصية" فالعامية: المبتذلة لظهور الجامع فيها كقولك: رأيت أسداً ووردت بحراً، والخاصية الغريبة التي لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة.

وقد ذكر بعد ذلك أن الأديب يتصرف فيجعل العامية كالخاصية بحاسته وذوقه، وعد الصورة التي بين أيدينا من قبيل الصور التي تنسب إلى هذا الجنس، وليس أدل على ذلك من قوله: وهذا شبه معروف ظاهر ولكن حسن التصرف فيه أفاد اللطف والغرابة، وذلك أن أسندا الفعل إلى الأباطح والشعاب دون المطى أو أعناقها والأنصار أو وجوههم إلخ".

هكذا صنف القزويني الصورة من زاوية الأمور العامية التي تصرف فيها الأديب فجعلها خاصية معززاً ذلك بأمور كان على رأسها: الإسناد الذي ولد للقارئ مجازاً عقلياً علاقته إسناد الحال للمحل، لكن الصورة تبدو للناظر مألوفة لا تحتاج إلى كبير فكر، إلا أن الشاعر نقلها من أرض العامية إلى الخاصية بتحايله وتصرفه.

هكذا وضع الخطيب الصورة في ميزانه الذي حكمته القاعدة أكثر من الذوق.

* * * *

الشاهد الثالث:

قال زياد بن سليمان مولى عبد القيس، وكان ألكن فلقب بالأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

نظرة الإمام:

عندما نزل الإمام أرض الصورة أراد - كما لا يخفى - أن يثبت هذه المعاني والأوصاف خلالا للمدوح وضرائب فيه فترك أن يصرح فيقول: "إن

السماحة والمروءة والندى لمجموعة في ابن الحشرج، أو مقصورة عليه، أو مختصة به، وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه، وإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة"[1]

لا يزال الشيخ يعلن عن منهجية عالية في تذوقه لسائر النصوص، لأنه لا ينظر إلى النص مجرداً، كما أنه لا ينظر إلى اللفظة مجردة، إنما يتعامل مع الكلمة في سياقها ومع الشاهد من خلال الإطار الكلي، كما أن القاعدة كانت لا تشغله قدر ما كان يشغله إعمال العقل، وإشحاذ البصيرة في النص الذي يدخل حرمه متأملاً متذوقاً.

وبإطلالة للشاهد يتبين أنه وضع البيت ليستشهد به على تذوقه لأسلوب الكناية، إذن مقصد الإمام دراسة البيت من خلال القاعدة التي شغلت رأس الخطيب، فراح يضع البيت في دائرة الكناية عن نسبة.

وبمتابعة مدخل الفصل الذي وضع فيه عبد القاهر الشاهد المعنون بقوله: "فصل في الكناية والتعريض" بمتابعة مدخله يتضح للناظر قراءة الإمام لقيمة الكناية الأسلوبية، لعلمه بدلالتها على قضاياها، وهذا جزء من قوله "هذا فن دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذاهب الكناية والتعريض، وكذلك يذهبون في إثبات الصفة هذه المذاهب، وإذا فعلوا ذلك بدت هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف[2]".

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٥، ٣٠٦

(٢) نفسه ص ٣٠٥

هذه هي مداخل الإمام التي كان يستهل بها أي ظاهرة بلاغية يريد تذوقها، أو فلسفتها بعقلية واعية مدركة لما تقول، ومن ثم يعرب عن قدرها في بنات أفكاره بمعالجة كلامية للذوق فيها حظ وافر.

هذا وقد اتضحت هذه الفلسفة في إطلالته لبيت ابن الحشرج عندما راح يعلن أن الشاعر نأى عن التصريح، لأن الصفات المذكورة مجموعة في شخصه، أو مقصورة عليه، أو مختصة به، نأى بنفسه عن التصريح وآثر التلويح بهذه المعاني من خلال نسبتها إلى غير العاقل قاصداً بها العاقل، أو من خلال إسنادها إلى المكان ليراد بها من يسكنه، وهذا ما غاب عن الشيخ القزويني الذي اهتم - كما سيأتي- بوضع الشاهد على أرض القاعدة المرتبطة به وهي الكناية عن نسبة، والفرق بين النظرتين جلي واضح لكل ذي عقل يتأمل به ما يقرأ من نتاج القدامى من علمائنا.

نظرة الخطيب:

وضع القزويني الصورة في دائرة النوع الثالث من أنواع الكناية باعتبار ما يطلب بها، وهذا قوله: "ثم الكناية ثلاثة أقسام لأن المطلوب إما غير صفة ولا نسبة، أو صفة أو نسبة"

وقد خص الكناية في البيت بقوله "فإنه حين أراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشرج جمعها في قبة تنبيها بذلك على أن محلها ذو قبة وجعلها مضروبة عليه؛ لوجود ذوي قباب في الدنيا كثيرين، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية"[1].

وقد علق الصعيدي فقال موضحاً: "لأن هذه الصفات لا تقوم بنفسها، ولا بتلك القبة من حيث ذاتها، فتعين أن تقوم به"[2].

---

(١) الإيضاح ص ١٧٠

(٢) بغية الإيضاح ص ٥٤٦

ويلاحظ المدقق لما قاله القزويني أن الرجل نظر إلى الكناية في المشهد من خلال القاعدة فقط، ومن ثم يدرك الناظر أنه لم يشغله الذوق الذي يتتبع اللون البلاغي، وكيف نظمه قائله بطريقة تحرك عقل المتلقى أو المخاطب.

وعندما قلت نظر الرجل إلى هذا اللون البلاغي من خلال القاعدة لم يكن عبثا، إنما كان من خلال التتبع لما كتبه؛ لأنه عنى بالتقسيمة الكنائية باعتبار ما يطلب بالكناية، وهو ما لوحظ وأدرك في كلامه، ومن ثم كان اهتمامه بتناول المبحث كغيره من زاوية القاعدة تقسيمة جاءت على حساب حاسة الذوق عند المتأمل، ودون شك فهي التي تكسب التحليل عمقاً يحسب للدراس والمتأمل.

ومن يتتبع تحليله يجد أنه ربط الشاهد بالنوع الثالث من أنواع الكناية، وللناظر أن يتدبر قوله: "فإنه حين أراد أن يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشرج جمعها في قبة ثم ضربها عليه".

من يرقب هذا الكلام ويتتبعه يرى أنه تعليق لا يرقى إلى الحاسة الأدبية البلاغية التي ترقب الظاهرة البلاغية لتتأمل كيف صيغت، وكيف صورت بالطريقة المناسبة لمقامها، مع أن الرجل لو أمعن النظر ملياً لعلم أن الشاعر طرق بابا له خطورته وقيمته عندما أسند السماحة والمروءة والندى للقبة، وهي معان عظيمة لا تسند لغير العاقل إلا لحكمة بالغة تناشد العقل أن يتأمل ويتدبر، ليحصل خيراً كثيراً في قراءته، لكن الرجل- أغلب ظني- لم يصرفه إلا احتكامه لوضع كل شاهد تحت قاعدته.

* * * *

الشاهد الرابع:

يشرف البحث فيه باستضافة آية من كتاب الله الخالد؛ ليتعطر العمل بها، وليتعرف على نظرة العالمين تجاهها.

قال تعالى: "أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم"؟

أولاً: نظرة الإمام ويعبّر عنها قوله: "واعلم أن هذا الذي ذكرت لك في الهمزة وهي للاستفهام قائم فيها إذا هي كانت للتقرير.

فإذا قلت: "أأنت فعلت ذلك" كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل، يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن نمروذ: "أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم" لا شبهة في أنهم لم يقولوا له ذلك عليه السلام، وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان، ولقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: "أأنت فعلت هذا" وقال هو عليه السلام في الجواب: "بل فعله كبيرهم هذا" ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب فعلت أو لم أفعل"[1].

من يطالع منهج الإمام في هذا التحليل يرى أنه وضع الهدى القرآني في مبحث عنوانه " تقديم المسند إليه مع الاستفهام التقريري والإنكاري" بخلاف ذكر الآية عند القزويني الذي نظر إليها من زاوية خروج الاستفهام إلى معان مجازية أو بلاغية، وأغلب الظن أن عنونة الإمام أكثر منهجية وأرفع ذوقاً من تلميذه[2]؛ لأنه جمع بين ملمحين بلاغيين إبان عنونته هما:

١- تقديم المسند إليه.

٢- مرافقة الاستفهام التقريري لظاهرة التقديم.

وهذان الملمحان لا يعثر عليهما في تحليل القزويني؛ لأنه سلط النظرة على خروج الاستفهام من الحقيقة إلى المجاز في ثوب التقرير الذي يسلط فيه

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٢-١٥٣

(٢) أعني الخطيب القزويني

الهمزة على المقرر به ، والمقرر به في الآية هو الفاعل، وليس الفعل، وهي نظرة - على عادته - للقاعدة المجردة بخلاف ما صنعه الإمام رحمه الله.

كما يدرك المتفرس لكلام الإمام دقه نظرته، وروعة إحاطته بأبعاد الاستفهام التقريري الذي سلط على المسند إليه المقدم فأفاد أمرين: الأول: وقوع الحدث بما لا يدع للريب مجالاً وهو كسر الأصنام.

الثاني: طلب اعتراف المسند إليه المقدم المسلط عليه الاستفهام بأنه هو الذي قام بالفعل المعترف به في السياق، وقد أعلن الشيخ عن هذا الأمر بحجة ناصعة، وذوق عال في قوله: " لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان".

والجملة السابقة، أو الاستنتاج السابق من الإمام بمنزلة إقامة الدليل على حجته ودعواه، وهو ذوق لا يرقى إلى قدره إلا رجل كهذا، أو من كان على شاكلته في علو الكعب الذوقي البلاغي.

فإن خالج أي انسان أدنى شك فيما قيل فألفاظ الإمام في تحليله خير شاهد، وخير شافع.

نظرة الخطيب:

تحدث القزويني عن أدوات الاستفهام، ثم قال: "هذه الأدوات كثيراً ما تستعمل في معان غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام، ثم عد من هذه المعاني التقرير وهذا قوله عن الآية المستضافة" ومنها التقرير، ويشترط في الهمزة أن يليها المقرر به كقولك:"أفعلت" إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه، وكقولك "أأنت فعلت؟" إذا أردت تقريره بأنه الفاعل.

وذهب الشيخ عبد القاهر والسكاكي وغيرهما إلى ان قوله: " أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم" من هذا الضرب.[1]

قال الشيخ: " لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان وكيف وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: " أأنت فعلت هذا" وقال عليه السلام " بل فعله كبيرهم هذا" ولو كان التقرير بالفعل في قولهم " أأنت فعلت هذا " لكان الجواب " فعلت أو لم أفعل".

بعد ذلك يذكر القزويني تعليقه على قول الإمام فيقول: وفيه نظر لجواز أن تكون الهمزة فيه على أصلها، إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه عليه السلام هو الذي كسر الأصنام، وكقولك " أزيدا تضرب" إذا أردت أن تقرره بأن مضروبة زيد[2].

هكذا وضع القزويني الآية في واحد من معاني الاستفهام المجازية، ولذلك علق الشيخ الصعيدي على قول الخطيب:" ومنها التقرير" بقوله: " دلالتها عليه من باب الإطلاق والتقييد أيضا، وذلك باستعمال الاستفهام في مطلق طلب الإقرار، ثم طلب الإقرار من غير سبق جهل[3].

إذن هذا هو البيت الذي سكنته الآية عند الخطيب، وقد اعتبر التقرير في الآية بالفاعل معززاً رأيه بشيخين كريمين هما عبد القاهر والسكاكي.

وعندما أراد أن يخضع الآية لشيء من الاستدراك الذوقي راح يستضيف كلام الإمام، وهذا أمر لا بأس به، وهو تعضيد الرأي بمن سبق، لكن الأمر كان يتطلب منه أن يعزز نسبة الآية الي التقرير بالفاعل بشيء من أم رأسه، لكنه- على عادته- يحن إلى القاعدة المجردة التي لا تسند بإعمال العقل الذوقي

---

(١) الإيضاح ص ٧٠
(٢) السابق ص ٧٠
(٣) بغية الإيضاح ص ٢٦٠

البلاغي في نظم الآية، على الرغم من أنه لو أنعم النظر لكان لتحليله مذاق آخر، ومن ثم فقد استدرك عليه الصعيدي نظرته ساعة قال: وفيه نظر، وكان في استدراكه إعمال عقل في السياق كله، أعنى سياق القصة الواردة بالسورة، وهذا قوله تعليقاً على قول الخطيب السابق: "وفيه نظر لجواز أن تكون الهمزة على أصلها"

رد الصعيدي موضحاً بقوله: "وقد أجيب عن هذا النظر بأن قوله قبل كسرها: "لأكيدن أصناكم" وقولهم: "سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم" فيهما دلالة على علمهم بأنه هو الذي كسرها، فلا يصح حمل استفهامهم على أصله وحقيقته.

ويخيل إلى أن الذي جعل الصعيدي يناقش قول الخطيب هو أنه أبى إلا أن يحتكم إلى منطق المناقشة والذوق بعيدا عن دنيا القاعدة الجافة التي تنشد القاعدة من الشاهد، ولا تبحث عن توظيفها للسياق والمقام.

* * * *

الشاهد الخامس:

قال أحمد بن الحسين المعروف بأبي الطيب المتنبي:

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا

نظرة الإمام للصورة:

أعلن عن نظرته بقوله: "ومما هو مثال بين في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قول المتنبي، ثم ذكر البيت، وقال عقبه: المعنى كما لا يخفى على أن السقم ثابت موجود، وليس القصد بالنفي إليه، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له، ويكون قد جره إلى نفسه، ومثله في الوضوح[1] قوله:

---

(١) أي للمتنبي

وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله ولكن لشعري فيك من نفسه شعر[1]

وبنظرة دقيقة متأنية في هذا التعليق الوجيز من شيخ البلاغيين يتأكد الناظر أنها كلمات قليلات، وعلى الرغم من ذلك تحوى إشارات في غاية الدقة والروعة، وبمقارنة بين ما ذكره، وبين ما سيذكر عند الخطيب يتبين الآتي:

أولاً: ذكر الشيخ الشاهد في فصل قائم بنفسه مستقل بذاته في الدلائل عنوانه" التقديم والتأخير مع النفي" وقد استهل الفصل بقوله: "فهذه مسائل في النفي إذا قلت: (ما فعلت) كنت نفيت عنك فعلاً لم يثبت أنه مفعول، وإذا قلت: (ما أنا فعلت) كنت نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول.

تفسير ذلك أنك إذا قلت: (ما قلت هذا) كنت نفيت أن تكون قد قلت ذاك، وإذا قلت (ما أنا قلت هذا) كنت نفيت أن تكون القائل له وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول بخلاف العبارة الأولى حيث كان مدار الأمر على شيء لم يثبت أنه مقول".[2]

ومن يمعن النظر في هذه الاستهلالة لهذا الفصل الذي استضاف الشاهد المقصود بالدراسة، من يمعن النظر يرى أن الرجل يتكلم عن فهم واسع، وذوق عميق لما يقصد، وهو ما يعلن عنه تحليله وشرحه واستدراكه وفصله للأمر ساعة راح يقرر بأن تسليط النفي على الفاعل ينفي حدوثه، ويبطل وجوده، أما إذا سلطناه على الاسم كالمثال الثاني "ما أنا قلت هذا" أفاد وجوده من غير المسلط عليه النفي وهذا قوله: وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول.

ثانياً: ساق الإمام قول المتنبي من باب البرهنة العلمية على صدق ما ذهب إليه في المسألة الأولى التي ذكرت في تعليقي، ومما يؤكد الأمر قوله:

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٦٠، ١٦١

(٢) السابق ص ١٦٠

ومما هو مثال بين في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قول المتنبي، ثم نص على البيت.

وذكر الشاهد على هذه الطريقة يعد منهجاً عملياً ذوقياً رائداً، لأنه يسوق أمثلته العادية من أم الرأس إبان التحليل ثم يبرهن على ما خرج به من كلام الشعراء كما حدث في هذا الموطن، أو من كلام الله، أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما ورد في مواطن كثيرة من كتابيه[1]

ثالثاً: يؤكد الإمام تذوقه من خلال بيت المتنبي معترفاً بوجود الحدث (السقم) إلا أنه ينفي أن يكون المتكلم فاعله من خلال تسليط النفي على المسند إليه المقدم، وهذا نص ما ذكره، وليس القصد بالنفي إليه، ولكن إلى أن يكون الجالب له.

نظرة القزويني:

يقول الرجل: "المعنى أن هذا السقم الموجود والضرم الثابت ما أنا جالب لهما، فالقصد إلى نفي كونه فاعلا لهما لا إلى نفيهما، ولهذا لا يقال: "ما أنا قلت ولا أحد غيري" لمناقضة منطوق الثاني مفهوم الأول بل يقال: "ما قلت أنا ولا أحد غيري" ولا يقال: "ما أنا رأيت أحداً من الناس" ولا "ما أنا ضربت إلا زيدا"، بل يقال: "ما رأيت أو ما أنا رأيت أحدا من الناس، وما ضربت أو ما ضربت أنا الا زيداً" لأن المنفي في الأول الرؤية الواقعة على كل واحد من الناس، وفي الثاني الضرم الواقع على كل واحد منهم سوى زيد، وقد سبق أن ما يفيد التقديم ثبوته لغير المذكور هو ما نفى عن المذكور فيكون الأول مقتضيا، لأن إنساناً غير المتكلم قد ضرب من عدا زيدا منهم وكلاهما محال"[2].

---

(١) أي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة

(٢) الإيضاح ص ٩٧، وبغية الإيضاح ص ...

وضع القزويني الشاهد في إطار الأغراض التي ذكرها لتقديم المسند إليه، فذكر أن لتقديم المسند إليه أغراضاً كثيرة عد منها: أهميته والتشويق إليه، والتعجيل بالمسرة أو المساءة، وقد يكون الفرض إيهام أنه لا يزول عن الخاطر ثم قال: " وإما لأنه يفيد زيادة تخصيص معززاً هذا الفرض بشواهد كثيرة كان على رأسها بل من أبرزها وأوضحها عنده هذا الشاهد المعنى بالتأمل والدراسة.

هذا ويلاحظ المتأمل لتعليق الخطيب أنه ركز على أمرين:

الأول: الإطار العام الذي وضع الشاهد تحته وهو أنه من الأغراض التي يقدم لأجلها المسند إليه: زيادة التخصيص .

الثاني: تقديم المسند إليه وقد ولى حرف النفي لتخصيصه بالخبر الفعلي ليعلن عن اعترافه بوجود السقم والضرم، إلا أنه ينفي أن يكون هو الجانب لهما.

وفي ظل هذا الطرح راح القزويني يذكر بالفكرة موضحاً إياها بأسلوب أخذ حظاً وافراً من المنطق والفلسفة، ومن ثم نأى بنفسه عن التذوق المراد لقول المتنبي، ومن ينظر او يرقب عن كثب تحليله وتعليقه يدرك هذا الحكم بصورة ناصعة الدلالة.

الخاتمـــة

حمداً لمن أنزل على رسوله القرآن وعلمه البيان وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد سيد ولد عدنان.

وبعـــد:

فبعد تتبع لهذين العلمين البارزين يخلص البحث إلى هذه النتائج التي توصل إليها العمل إبان المعالجة، وهي تكمن في الآتي:

أولاً: اقترب البحث من حرم الإمام عبد القاهر الجرجاني، وأقر أن الرجل – رحمه الله- كان على رأس الذين درسوا بلاغة القرآن بغية تتبع الملامح العامة للنص، وكذلك سائر النصوص قرآنية أو نبوية أو شعرية.

ثانياً: علم البحث أن الرجل عرف قيمة اللفظة، ومن ثم أدرك أنها لا قيمة لها وهي مفردة، أما إذا وضعت في تركيب تبين المراد منها من خلال سياقها الذي وضعت فيه.

ثالثاً: تأكد البحث من إدراك الإمام لقيمة المترادفات فتعامل معها بعين المدرك للفروق الدلالية بينها، ومن ثم راح البحث يختلف مع الذين اعتبروا المترادفات مأخذا على الإمام.

رابعاً: تبين للبحث أن منهج الإمام كان منهجاً ذوقياً في تحليله البلاغي، فلم تشغله استعارة، ولم يشغله تشبيه ولا فصل ولا وصل ولا إيجاز ولا إطناب على قدر ما كانت تشغله النظرة الكلية للنص، كما أنه لم يهمل في نظرته العامل النفسي.

خامساً: تأكد البحث بما لا يدع للريب مجالاً أن منهج الإمام في تذوق النصوص القرآنية والنبوية والشعرية جدير بالاهتمام والتتبع

والدراسة؛ لأنه كشف عن عقلية نادرة في عصره وسائر العصور اللهم إذا أفاء الله على العقل البشري بامتداد طيب للرجل.

سادساً: أثبت البحث كذلك أن الخطيب شغلته القاعدة على حساب التذوق العام للنص، فشغله الجانب الجزئي للبلاغة، حتى راح يرقب استعارة، أو تشبيها أو كناية أو فصلا، أو وصلاً- وقد شغلته نظرته عن التتبع الذوقي لأي نص يتناول معه بصورة بلاغية.

سابعاً: بين العمل أن الخطيب تأثر بالإمام وبالسابقين كالسكاكي، إلا أنه ترك خيراً كثيراً لعدم سيره على دربه في الجانب الذوقي ، على الرغم من أنه لو سار على دربه في هذا المنهج لربح خيراً كثيراً، لكنها البشرية التي لا تعرف الكمال.

ثامناً: كما تبين للناظر من خلال البرهنة العملية في الفصل الثاني سعة عقل الإمام وسمو منزلته الأدبية والبلاغية في تحليله الذي يناشد أي عقل أن يتأمل ويتدبر خاشع الطرف، كما اتضح للناظر نظرة الخطيب الجزئية التي راحت تتبع الظاهرة البلاغية من خلال القاعدة فحسب.

أهم المراجع

١- القرآن الكريم.
٢- أسرار البلاغة في علم البيان للإمام عبد القاهر الجرجاني- دار المعرفة- بيروت.
٣- الأسلوب للشايب - مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٥م.
٤- الإيضاح للخطيب القزويني - المكتبة الأزهرية ١٩٩٣م.
٥- البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف- دار المعارف ١٩٩٢م.
٦- النقد الأدبي الحديث د محمد غنيمي هلال -دار نهضة مصر.
٧- النكت للرماني.
٨- المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي-دار الحديث بالقاهرة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٩- بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي- مكتبة الآداب ٢٠٠٥م.
١٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي- دار ابن حزم ١٤٢٤هـ.
١١- حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي
١٢- جواهر البلاغة في المعاني والبيان و البديع للهاشمي- المكتبة العصرية بيروت.
١٣- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني- المكتبة العصرية بيروت ١٤٢١م.
١٤- صفوة التفاسير للصابوني.
١٥- علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي- المكتبة العصرية بيروت ٢٠٠٥.